الفصل الثاني

من كلامه

«كرم الله وجهه»

١ـ ومن كلام له

في صفة من يتصدى للحكم بين الأمة وليس لذلك بأهل وفيها: أبغض الخلائق إلى الله صنفان

الصنف الأول: إن أبغض الخلائق إلى الله رجلان: رجل وكله الله إلى نفسه؛ فهو جائر عن قصد السبيل؛ مشغوف بكلام بدعة، ودعاء ضلالة، فهو فتنة لمن افتتن به، ضال عن هدى من كان قبله، مضل لمن اقتدى به في حياته وبعد وفاته، حمّال خطايا غيره، رهن بخطيئته.

الصنف الثاني: ورجل قمش جهلا[1]، موضع في جهّال الأمة، عاد في أغباش[2] الفتنة، عم بما في عقد الهدنة؛ قد سمّاه أشباه الناس عالما وليس به، بكّر فاستكثر من جمع ما قل منه خير مما كثر، حتى إذا ارتوى من ماء آجن[3]، واكتثر[4] من غير طائل، جلس بين الناس قاضيا ضامنا لتخليص ما التبس على غيره، فإن نزلت به إحدى المبهمات هيأ لها حشوا رثا من رأيه، ثم قطع به، فهو من لبس الشبهات في مثل نسج

---

(١) قمش جهلا: جمعه. وأصل القمش جمع المتفرق.

(٢) جمع غبش، وأغباش الليل: بقايا ظلمته.

(٣) الفاسد المتغير اللون والطعم.

(٤) استكثر.

العنكبوت: لا يدري أصاب أم أخطأ؛ فإن أصاب خاف أن يكون قد أخطأ، وإن أخطأ رجا أن يكون قد أصاب. جاهل خبّاط جهالات، عاش ركّاب عشوات[1]، لم يعض على العلم بضرس قاطع. يذرو[2] الروايات ذرو الريح الهشيم لا ملي[3] - والله - بإصدار ما ورد عليه، ولا أهل لما قُرِّظ به، لا يحسب العلم في شيء مما أنكره، ولا يرى أن من وراء ما بلغ مذهبا لغيره، وإن أظلم عليه أمر اكتتم به لما يعلم من جهل نفسه، تصرخ من جور قضائه الدماء، وتعج منه المواريث. إلى الله أشكو من معشر يعيشون جهالا، ويموتون ضُلالا، ليس فيهم سلعة أبور من الكتاب إذا تلي حق تلاوته، ولا سلعة أنفق بيعا ولا أغلى ثمنا من الكتاب إذا حُرِّف عن مواضعه، ولا عندهم أنكر من المعروف ولا أعرف من المنكر!

٢- ومن كلام له

في ذم اختلاف العلماء في الفتيا

وفيه يذم أهل الرأي ويكل أمر الحكم في أمور الدين للقرآن

ذم أهل الرأي

ترد على أحدهم القضية في حكم من الأحكام فيحكم فيها برأيه، ثم ترد تلك القضية بعينها على غيره فيحكم فيها بخلاف قوله، ثم يجتمع القضاة بذلك عند الإمام الذي استقضاهم، فيصوب آراءهم جميعا -

(١) جمع عثرة وهي ركوب الأمر على غير هدى.

(٢) ينثر.

(٣) الملي بالشيء: القيم به الذي يجيد القيام عليه.

وإلههم واحد! ونبيهم واحد! وكتابهم واحد! أفأمرهم الله ـ سبحانه ـ بالاختلاف فأطاعوه! أم نهاهم عنه فعصوه!

الحكم للقرآن

أم أنزل الله سبحانه دينا ناقصا فاستعان بهم على إتمامه! أم كانوا شركاء له، فلهم أن يقولوا، وعليه أن يرضى؟ أم أنزل الله سبحانه دينا تاما فقصّر الرسول ﷺ عن تبليغه وأدائه، والله سبحانه يقول: «ما فرّطنا في الكتاب من شيء» وفيه تبيان لكل شيء، وذكر أن الكتاب يُصدق بعضه بعضا، وأنه لا اختلاف فيه فقال سبحانه: «ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا». وإن القرآن ظاهره أنيق وباطنه عميق، لا تفنى عجائبه، ولا تنقضي غرائبه، ولا تكشف الظلمات إلا به.

٣. ومن كلام له

وفيه يحذر من اتباع الهوى وطول الأمل في الدنيا

أيها الناس: إن أخوف ما أخاف عليكم اثنان: اتباع الهوى، وطول الأمل؛ فأما اتباع الهوى فيصد عن الحق، وأما طول الأمل فينسي الآخرة. ألا وإن الدنيا قد ولّت حذّاء[1]؛ فلم يبق منها إلا صُبابة[2] كصبابة الإناء اصطبّها صابّها. وإن الآخرة قد أقبلت، ولكل منهما بنون، فكونوا من أبناء الآخرة؛ ولا تكونوا من أبناء الدنيا، فإن كل ولد سيُلحق بأبيه يوم القيامة، وإن اليوم عمل ولا حساب، وغدا حساب، ولا عمل.

---

(١) قال الشريف: أقول: الحذاء، السريعة، ومن الناس من يرويه «جذاء».

(٢) البقية من الماء واللبن في الإناء.

٤ـ ومن كلام له

أ ـ وفيه جملة من صفات الربوبية والعلم الإلهي

الحمد لله الذي بطن خفيات الأمور، ودلت عليه أعلام الظهور، وامتنع على عين البصير؛ فلا عين من لم يره تنكره، ولا قلب من أثبته يبصره: سبق في العلو فلا شيء أعلى منه، وقرب في الدنو فلا شيء أقرب منه. فلا استعلاؤه باعده عن شيء من خلقه، ولا قربه ساواهم في المكان به. لم يطلع العقول على تحديد صفته، ولم يحجبها عن واجب معرفته، فهو الذي تشهد له أعلام الوجود، على إقرار قلب ذي الجحود، تعالى الله عما يقوله المشبهون به والجاحدون له علوا كبيرا!

ب ـ بيان لما يخرب العالم به من الفتن وبيان هذه الفتن

إنما بدء وقوع الفتن أهواء تتبع، وأحكام تبتدع، يخالف فيها كتاب الله، ويتولى عليها رجال رجالا، على غير دين الله. فلو أن الباطل خلص من مزاج الحق لم يخف على المرتادين[1]؛ ولو أن الحق خلص من لبس الباطل، انقطعت عنه ألسن المعاندين؛ ولكن يؤخذ من هذا ضغث، ومن هذا ضغث[2]، فيمزجان! فهنالك يستولي الشيطان على أوليائه، وينجو «الذين سبقت لهم من الله الحسنى».

٥ـ ومن كلام له

في الزهد

أيها الناس، الزهادة قصر الأمل، والشكر عند النعم، والتورع عند المحارم، فإن عزب[3] ذلك عنكم فلا يغلب الحرام صبركم، ولا تنسوا

(١) الطالبين للحقيقة.

(٢) قبضة من حشيش مخلوط فيه الرطب باليابس.

(٣) أي بعد عنكم.

عند النعم شكركم، فقد أعذر الله إليكم بحجج مسفرة[1] ظاهرة، وكتب بارزة العذر[2] واضحة.

وفي ذم صفة الدنيا

ما أصف من دار أولها عناء، وآخرها فناء! في حلالها حساب، وفي حرامها عقاب. من استغنى فيها فُتن، ومن افتقر فيها حزن، ومن ساعاها[3] فاتته، ومن قعد عنها واتته، ومن أبصر بها بصّرته، ومن أبصر إليها أعمته.

٦ـ ومن كلام له

في التزهيد من الدنيا والترغيب في الآخرة

أيها الناس، إنما الدنيا دار مجاز، والآخرة دار قرار، فخذوا من ممركم لمقركم، ولا تهتكوا أستاركم عند من يعلم أسراركم، وأخرجوا من الدنيا قلوبكم من قبل أن تخرج منها أبدانكم ففيها اختبرتم، ولغيرها خلقتم. إن المرء إذا هلك قال الناس: ما ترك؟ وقالت الملائكة: ما قدم؟ لله آباؤكم! فقدموا بعضا يكن لكم قرضا، ولا تخلفوا كلا فيكون فرضا عليكم.

تجهزوا رحمكم الله! فقد نودي فيكم بالرحيل، وأقلوا العرجة[4] على الدنيا، وانقلبوا بصالح ما بحضرتكم من الزاد، فإن أمامكم عقبة كؤودا، ومنازل مخوفة مهولة، لابد من الورود عليها، والوقوف عندها.

---

(١) كاشفة عن نتائجها الصحيحة.

(٢) بارزة العذر: ظاهرته.

(٣) جاراها سعيا.

(٤) اسم من التعريج بمعنى حبس الطية على المنزل.

واعلموا أن ملاحظ المنية نحوكم دانية، وكأنكم بمخالبها وقد نشبت فيكم، وقد دهمتكم فيها مفظعات الأمور، ومعضلات المحذور. فقطّعوا علائق الدنيا واستظهروا بزاد التقوى.

٧. ومن كلام له

١. في النهي عن غيبة الناس

وإنما ينبغي لأهل العصمة والمصنوع إليهم في السلامة أن يرحموا أهل الذنوب والمعصية، ويكون الشكر هو الغالب عليهم، والحاجز لهم عنهم، فكيف بالعائب الذي عاب أخاه وعيّره ببلواه! أما ذكر موضع ستر الله عليه من ذنوبه مما هو أعظم من الذنب الذي عابه به! وكيف يذمه بذنب قد ركب مثله! فإن لم يكن ركب ذلك الذنب بعينه فقد عصى الله فيما سواه، مما هو أعظم منه. وأيم الله لئن لم يكن عصاه في الكبير، وعصاه في الصغير، لجراءته على عيب الناس أكبر!

ياعبد الله، لا تعجل في عيب أحد بذنبه، فلعله مغفور له، ولا تأمن على نفسك صغير معصية، فلعلك معذب عليه. فليكفف من علم منكم عيب غيره لما يعلم من عيب نفسه، وليكن الشكر شاغلا له على معافاته مما ابتلى به غيره.

٢. في النهي عن سماع الغيبة وفي الفرق بين الحق والباطل

أيها الناس، من عرف من أخيه وثيقة دين وسداد طريق، فلا يسمعن فيه أقاويل الرجال. أما إنه يرمي الرامي، وتخطئ السهام، ويحيل الكلام، وباطل ذلك يبور، والله سميع وشهيد. أما إنه ليس بين الحق والباطل إلا أربع أصابع.

فسئل، عليه السلام، عن معنى قوله هذا، فجمع أصابعه ووضعها بين أذنه وعينه ثم قال:

الباطل أن تقول سمعت، والحق أن تقول رأيت!

٨ـ ومن كلام له

المعروف في غير أهله

وليس لواضع المعروف في غير حقه، وعند غير أهله، من الحظ فيما أتى إلا محمدة اللئام، وثناء الأشرار، ومقالة الجهال، مادام منعما عليهم: ما أجود يده! وهو عن ذات الله بخيل!

مواضع المعروف

فمن آتاه الله مالا فليصل به القرابة، وليحسن منه الضيافة، وليفك به الأسير والعاني، وليعط منه الفقير والغارم، وليصبر نفسه على الحقوق والنوائب، ابتغاء الثواب؛ فإن فوزا بهذه الخصال شرف مكارم الدنيا، ودرك فضائل الآخرة؛ إن شاء الله.